إلى تصرفهم من ورائهم ، إذ كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خُلس البطالة ، مع غلبة الصبوة والجهالة ، فقلت للبياذقة : الأمير أعلم من صاحبه ؛ فلمحوني شزراً وعظمت في أعينهم بعد أن كنتُ نزراً ، وتقدم إلى الأمير من نقل الكلام إليه ، فاستدناني فدنوتُ منه ، وسألني هل لي مما هم فيه بصر ؟ فقلت : لي فيه بعض نظر ، سيبدو لك ويظهر ، حرّك تلك القطعة ، ففعل ، وعارضه صاحبه ، فأمرته أن يحرك أخرى ، وما زالت الحركات بينهم كذلك تترى ، حتى هزمهم الأمير ، وانقطع التدبير ، فقالوا : ما أنت بصغير ، وكان في أثناء تلك الحركات قد ترنم ابن عمّ الأمير منشداً :

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه

وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

فقال : لمن الله أبا الطيب أوَ يشكّ الربّ ؟

فقلت في الحال : ليس كما ظنّ صاحبك أيها الأمير ، انما أراد بالرب ههنا الصاحب ، يقول : ألذّ الهوى ما كان المحبُّ فيه من الوصال ، وبلوغ الغرض والآمال ، على ريب ، فهو في وقته كله على رجاء لما يؤمله ، ونقدة لما يقع به ، كما قال :

إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى

فأين حلاوات الرسائل والكتب

وأخذنا نضيف إلى ذلك من الأغراض ، في طرق الابرام والانتقاض ، ما حرّك منهم إلى جهتي دواعي الانتهاض ، وأقبلوا يتعجبون مني ، ويسألونني كم سنّي ، ويستكشفونني عني ، فبقرت لهم حديثي [١] ، وذكرت لهم نجيبي [٢] ، وأعلمت الأمير بأن أبي حَيّ ، فاستدعاه ، وقمنا الثلاثة الى مثواه ، فخلع علينا خلعه ، وأسبل علينا أدمُعه ، وجاء كل خوان ، بألفان الألوان ، ثم قال — بعد المبالغة في وصف ما نالهم من إكرامه — فانظر الى هذا العلم الذي هو للجهل أقرب [٣] ، مع تلك الصيانة اليسيرة من الأدب ، كيف أنقذنا من العطب . . .

(لها بقية)

عبد الرحمن البرقوقي

(١) بقرت حديثي فتحته وكشفته وأصل البقر الشق والفتح والتوسعة

(٢) نجيب الخبر ما ظهر من قبيحه يقال بدا نجيب القوم إذا ظهر سرهم الذي كانوا يخفونه والمراد هنا جلية أمري

(٣) يريد لماحه بالشطرنج وليس يعاب مثله بمعرفته الشطرنج ولاسيما إذا لوحظ أن ذلك كان منه في حداثة سنه وذلك دليل على رجحان لبه وذكاء قريحته وعلى ذلك قد عاب هو نفسه مثل هذا العلم إذ جعله للجهل أقرب اهـ

جامعة الاسكندرية

بقلم ابراهيم جمعة

المتحف الاسكندري — جامعة على غرار الأكاديميات الأثينية — وجه الخلاف بينهما — الغرض من إقامة المتحف — راعي المتحف — جامعة الاسكندرية وجامعات العصور الوسطى في أوروبا — الشبه بين كلية الملكة وكلية أول سولز في اكسفورد وبين جامعة الاسكندرية — النظام الداخلي للجامعة — علماء هذا العصر — مكتبة المتحف

— ١ —

تحققت في مصر سياسة الاسكندر الأكبر — تلك السياسة التي كانت ترمي الى صبغ البلاد المفتوحة بصبغة إغريقية هلينية ، وقد ساعد على تحقيق حلم الاسكندر إنشاؤه مدينة الاسكندرية لتكون مركزاً لتلك الثقافة الجديدة . وقد جرى أعقابه في مصر من البطالسة على سياسته ، فجعلوا الاسكندرية من حيث التجارة وريثة لبيريه ميناء أثينا التجارية كما جعلوها وريثة لأثينا نفسها من الوجهة العلمية — وهكذا تكون الاسكندرية قد قامت في وقت هوى فيه لواء العلم بين علم عهمة سامية ظلت تقوم باعبائها عدة قرون

وكان أكبر مظاهر هذه الوراثة تأسيس بطليموس سوتر لمتحف الاسكندرية — والمتحف الاسكندري جامعة علمية ، وإنما سميت الجامعة متحفاً لقيامها في ركن من أركانه . وقد كانت تلك التسمية شائعة في العصر الاغريقي ، فقد كان يطلق لفظ «الجنازيوم» على جامعة بيرين . . وقد انحدرت هذه التسمية من العصور القديمة الى العصور الوسطى فالحديثة ، فما يزال يطلق لفظ المتحف « ميوزيوم » على بعض الأندية الأدبية في ألمانيا حتى الآن

فلا غرابة إذن إذا أطلقنا لفظ المتحف الاسكندري وأردنا به جامعة الاسكندرية ، فقد كان كل ما في المتحف من شتى أنواع الحيوان والنبات ومن مجموعات الكتب النفيسة والمخطوطات وما إلى ذلك عوناً على الدراسة العلمية المنظمة ، والبحث في حياة الكائنات ، وتقصي الحقائق والتأليف ، مما كان في مجموعه أشبه شيء بمهمة الجامعات في العصور الحديثة

أنشأ سوتر هذا المتحف بمساعدة فيلسوف أثيني هو « ديمتريوس فاليرون » الخطيب اليوناني الذي استصحبه سوتر

فى عودته من حرب ديمتريوس ملك مقدونيـة . ومما يدعو الى كثير من الأسـف أننا لا نعثر الآن على كثير من معالم ذلك المتحف فى حين استطعنا أن نلم بكثير من المعلومات عن المعاهد المعاصرة له . ومن عجب أن يكون هذا ، لأن المتحف أنشئ فى وضح التاريخ ، وفى عصر عاهل شهير ، وفى مدينة من أعظم مدن العالم القـديم ! ولعل التنقيب يكشف عن بعض معالم المتحف الاسكندرى لو كان للتنقيب من سبيل

غير أنه لحسن الحظ استطعنا أن نصل إلى بعض انتاج المتحف الإسكندرى فى النقـد الأدبى وفى العلوم الرياضية والجغرافية وغير هذه وتلك من فروع المعرفة الانسانية ، فاذا لحظنا ضعفاً ظاهراً فى الأدب والشعر والفلسفة ، فانما يعزى ذلك الى ضعف هذا العصر الأول من عصور الجامعة فى هذين النوعين من الإنتاج . بالمقارنة مع أثينا وأيونيا اللتين كانتا إذ ذاك فى أوجهما العلمى

إن فـكرة جعل الاسكندرية مركزاً للتجارة ومستقراً للعلوم والآداب والفنون ، اختمرت تدريجاً فى ذهن بطليموس سوتر اختماراً ساعـد على اخراجه الى عالم الحقيقـة ذلك الفيلسوف الاغريقى . . وكان لا بد أن يكون تأسيس المتحف على غرار يونانى بحت ، إذ أنه وليد فكر يونانى كما نرى ..

نشأت المدارس اللاتينيـة بادئ الأمر فى شـكل حلقات للدرس ، تنتظم حول معـلم يتحدث إلى تلاميذه فى فرع من فروع المعرفة ، وما لبثت هذه الحلقات أن استحالت الى هيئات علمية منظمة ، عرفت كل منها باسم معلمها الأول ، واتخذت اسم « الأكاديمى » وقد كانت هذه الهيئات العلمية فى بلاد اليونان بعيدة عن أى إشراف حكومى ، إلا فى الأوقات التى كانت ترى فيها الحكومات ضرورة قصوى للتدخل فى حريتها العلمية ابتغاء الحد من تلك الحرية ، محافظة على سلامة الأداة الحكومية من أى شطط ينتجه التفكير الحر

أما فى مصر فقـد حتمت البيرقراطية الحربية أن يكون المتحف تحت الاشراف الحكومى المباشر وفى رعايته . وهكذا كان المتحف ، أو كانت جامعة الاسكنـدرية ، من بدء إنشائها هيئة حكومية تستمد وجودها مباشرة من الملك ، ويستمد كل فرد من أفرادها حريته منه

لم يكن الغرض الذى قصد إليه بطليموس من إنشاء هذا المتحف هو أداء رسالة معينة تصدر عن ذلك المعهد ، ولم يكن هو يدرى فى كثير أو قليل الفرق بين المعهـد الذى أنشأه وبين تلك الأكاديميات الأثينية التى ازدهرت فى أثينا ، وإنما الظاهر للباحث أنه قصد من وراء إنشائه الى غرض قد يكون سياسياً وقد لا يكون ، قصد إلى أن يجعل المدينة التى جعلها الاسكندر عاصمة له مركزاً لحكم العالم الهلينى بأسره ، فمن أجل هذا كلف سوتر بالاستيلاء على مقدونية ، وبفرض سيطرته المطلقة على البحر الأبيض الشرقى ؛ ولا شك أن هذه السياسة شبيهة بسياسة التوسع التى جرى عليها الاسكندر مع فرق جوهرى هو أن الاسكندر كان يجعل مقدونيا نواة لأمبراطوريته ، بينما كان سوتر يرمى الى جعل مصر التى آلت إليه بعد موت سيده نواة لأمبراطورية بطليموسية

والذى يتأمل فى شخصية سوتر لا يرى غرابة فى سعة أطماعه التى أصبحت الاسكندرية بحكم الظروف مركزها الطبيعى ، لهذا لم يأل سوتر جهداً فى توفير مظاهر الأبهة والعظمة لمدينته الخالدة ، وإذن فقد كان الغرض الأول والأخير من إنشاء المتحف هو أن يجمع فى الاسكندرية جمهرة من العلماء تفكر ، وتحاضر ، وتكلف بالبحث ، امتازت بتفوقها العلمى والأدبى لأنها كانت جمهرة منتقاة ابتغاء التشبه بأثينا وعلمائها ، أثينا عاصمة العالم الهلينى ومستودع علمه .. وبهذا تكون رغبات سوتر منحصرة فى أن يسلب مقدونيا نفوذها السياسى ليتركز فى مصر ، وأثينا نفوذها العلمى ليستقر فى الاسكندرية

وكانت هذه الجمهرة من العلماء تسكن المتحف ، تحت إشراف رئيس دينى يعينه الملك من الـكهنة ، ويجدر أن نذكر هنا أنه لم يكن مصريا كمعظم هيئة المتحف ، وقد كانت مهمته قاصرة على رعاية المتحف رعاية دينية ، وهو تقليد جامعى نقلتـه جامعة الاسكندرية عن جامعة أثينا بشىء من الاختلاف ، إذ كان راعى الأكاديمية الأثينية ينتخب انتخاباً . أما راعى جامعة الاسكندرية فقد كان يعين تعييناً لمدة تطول وتقصر تبعاً للارادة الملكية

ولما أن استطاع سوتر أن يجعل للاسكندرية مكانة سياسية ممتازة ، وتمكن فى الوقت نفسه أن يحيطها بجو علمى خاص ، أمها الطلاب من جميع أنحاء العالم الهلينى يطلبون العلم على خير أساتذته

وقد كانت مهمة هذه الجامعة الناشئة أول أمرها قاصرة على النقد العلمي ، والنظر فى مؤلفات السابقين ، دون أن تكون مبتدعة أو مضيفة إلى الثروة العلمية ..وتموزنا المعلومات عن عدد الطلاب المختلفين إلى حلقات الدرس بالجامعة ، وعن نظام معيشتهم ، وعن العلاقة بين هؤلاء الطلاب وبين أساتذتهم لنستشف من هـذه العلاقة شيئاً عن الروح الجامعية فى جامعة الاسكندرية

وفى هذا السبيل لم نصل إلى أكثر من أن عدداً من الطلاب الغرباء أم الاسكندرية طلباً للعلم ، ولا بد أن يكون هـذا العدد قد سكن المتحف أو سكن المدينة على مقربة من المتحف ، حيث لم يكن لهم فى المدينة غاية غير الدراسة

حقاً لقد كان بالمتحف أروقة ، ولـكن الشائع أنها كانت لسكنى العلماء ، ولـكن حقيقة معينة تدعو إلى الاعتقاد بأن الطلاب عامة سواء أكانوا من الوطنيين أم الأجانب النازحين ، كانوا يساكنون الأساتذة فى تلك الأروقة ، تلك هى التى يذكرها « ماف » فى كتابه « الحياة والعقائد الاغريقية » ويقرر فيها أن نظام جامعة الاسكندرية كان كنظام « كلية الملكة » فى اكسفورد فى أول إنشائها ، أشبه شىء بمدرسة داخلية يختلف فيها الطلاب إلى دروس يلقيها الأساتذة ثم ينصرفون فى أوقات فراغهم إلى الاستذكار . وأقل ما يؤخذ من هذا أن الطلبة كانوا يعيشون مع أساتذتهم فى بناء واحد ، ومن شأن هذا أن يعطى مجالاً للتعاون العلمى بين الطلبة من ناحية وبين الطلبة وأساتذتهم من ناحية أخرى ؛ ومن شأنه أيضاً أن يظهر الجامعة بمظهر لا يتفق مع سمو النظام الجامعى الذى يجب أن يكون أميز خصائصه البحث العلمى ، وأخذ الطلاب به تدريجاً حتى تنمو فيهم ملـكته . وهذا ما فطنت إليه جامعة الاسكندرية ، فنزلت عن النظام العتيق تدريجاً واشـترك الطلبة فى الأبحاث العلمية ، وقاموا أحياناً بواجب الأساتذه تمريناً لهم على مزاولة التدريس الجامعى . ووقفت جامعات أوربا فى العصور الوسطى — ولاسيما كلية الملـكة فى اكسفورد — فى مثل ما وقفت فيه جامعة الاسكندرية من خطأ ، ولـكنها أدركت ما فى هذا النظام من قصور ؛ وجاءت كلية « أول سولز » فى شكلها الأخير مصححة لهذا الخطأ فى النظام الجامعى حيث يقوم « الرفقاء » بأبحاث علمية وأدبية بعد حصولهم من جامعة اكسفورد على درجاتهم العلمية

ويحق لجامعة الاسكندرية أن تفاخر جامعات العالم طرا بما سبقت إليه من جمع الآداب اليونانية ، وتهذيبها ، وتنقيتها من الشوائب ، بما توفر لعلمائها وطلابها فى زمن بطليموس فيلادلف من المقدرة الفائقة على النقد الأدبى

ولم تـكن الجامعة معهد العلم الوحيد فى المدينـة ، فقد كان إلى جانبها بعض المدارس اليهودية يتلقى فيها أبناء اليهود شرائع دياناتهم — وقد صحب دخول المسيحية نشأة بعض المدارس النصرانية ، ناوأت الجامعة واليهودية معاً ، وفيها نمت القومية المصرية ، ونضج الشعور القومى ، وانتقض فى وقت ما على الآثار الاغريقية والرومانية كما سنفصله فيما بعد

ويذكر « ماف » فى كتابه « إمبراطورية البطالسة » أن جامعة الاسكندرية اتخذت نموذجاً لـكل الجامعات التى تلتها فى أوربا ، فعلى غرارها تأسست جامعات أوربا فى العصور الوسطى

أما المـكتبة الشهيرة فلا تمدنا المصادر التاريخية بشىء قاطع فى شأن مكانها : أكانت متصلة بالمتحف ، أم كانت منفصلة عنه ، وهل كان أمين تلك المـكتبة — وهو شخصية عرف عنها كثير من الفضل والأدب — عضواً من أعضاء المتحف . والغالب على الظن أن المـكتبة كانت وثيقة الاتصال بالمتحف ؛ تمد الباحثين فيـه بحقائق العلوم التى وصل إليها الاغريق فى أثينا وأيونيا من قبل

ونرجح أن تـكون أول مكتبة أنشئت مع المتحف فى وقت واحد فى حى البروكيون — ولا يذكر « سترابو » ، وقد زار الاسكندرية فى عهد أغسطس شيئاً ما عن المـكتبة أو عن احتراقها — وكل ما ذكره « ديودور » أنه اطلع على نشرات كانت تصدر فى البلاط الملـكى استمد منها بعض معلوماته

ويغلب أن تـكون المـكتبة قد جمعت بنفس الطريقة التى جمعت بهـا بعض المـكتبات الانجليزية الشهيرة كمـكتبة « سنيرد لاند » ومكتبة « سبنسر » كما تجمع وتقتنى قطع الخزف الأثرية أو الصور التاريخية سواء بسواء

« للبحث بقية »

إبراهيم بيومى